السنة الحادية عشرة من النبوة

قال علماء السِّيَر: لما توفي أبو طالب وخديجة رضي الله عنهما، اجتمع على رسول الله ﷺ مصيبتان، فلزم بيته وقَلَّلَ الخُروج، وطمعت قريش فيه ونالت منه، فرقَّ عليه أبو لهب فجاءه فقال: يا ابن أخي، لا بأس عليك، امض لما أُمِرت به، واصنع ماكنت تصنعُ وأبو طالبٍ حيٌّ، فواللّات والعُزَّى لن يوصل إليك وأنا في الحياة. ثم إن ابن الغَيْطَلةِ سبَّ رسولَ الله ﷺ، فنال منه أبو لهب، فصاح: يا معاشر قريش، قد صبأ أبو لهب. فقال: ما صبأتُ، ولكن أمنَعُ ابن أخي من أن يُضامَ. وأقام على ذلك مدة، فجاءه عقبة وأبو جهل[1] وجماعة من أعداء رسول الله ﷺ، فقالوا: سَلِ ابن أخيك أين مستقر أبيك، فسأله؟ فقال: مع قومه. فقالوا: إنه يقول: في النار. فشق ذلك على أبي لهب، ورجع إلى عداوته[2].

وخرج رسول الله ﷺ إلى القبائل يدعوهم إلى الله تعالى ومعه أبو بكر، وعلي رضي الله عنهما.

قال ابن إسحاق: أتى بني حنيفة في منازلهم، فعرض عليهم نفسه، ودعاهم إلى الله تعالى، فلم يرد عليه أحد من العرب أقبح من ردهم، وقال له رجل منهم: ما يؤوب بك قوم إلى دارهم إلا آبو بشرٍّ مآبٍ. وقال له رجل من كَلْب: ما أحسن ما تدعو إليه إلا أنَّ قومك باعدوك، فلو صالحت قومك لاتبعتك العرب.

قصة أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع الغلام الشيباني:

قال علي عليه السلام: لما أمر الله رسوله ﷺ أن يعرضَ نفسَه على القبائل، خرجتُ أنا وأبو بكر معه، فَدُفِعْنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر وكان مقدَّماً في كل خير، فسلَّم عليهم، وكان رجلاً نسَّابةً فقال: من القوم؟ قالوا: من ربيعة. قال: وأي ربيعة؟ قالوا: من ذُهل الأكبر. قال أبو بكر: من هامتها أو من لهازِمها؟ قالوا: من

(١) في «النسخ»: «أبو لهب» والمثبت من «الطبقات الكبرى».
(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١/ ١٧٩-١٨٠ .

هامتها العظمى، قال: أفيكم عوف الذي يقال له: عليك بوادي عوف؟ قالوا: لا. قال: أفيكم بسطامُ بنُ قيس مُنْتَهى الأَحياء، ومعدن السخاء؟ قالوا: لا. قال: أفيكُم جَسَّاس بن مرة حامي الذِّمار، ومانع الجار؟ قالوا: لا[1]. قال: أفيكم أخوال الملوك من كِندة؟ قالوا: لا. قال: فأصهار الملوك من لَخْم؟ قالوا: لا. قال: فلستم من ذُهْلٍ الأكبر، أنتم من ذُهْلٍ الأصغر. قال: فقام إليه غلام من بني شيبان، يقال له: دَغْفَل.

ودَغْفَل بن حنظلة بن زيد من بني بكر بن وائل شيباني، اختلفوا في صحبته، وروى عنه الحسن البصري، ومحمد بن سيرين. واستقدمه معاويةُ فأمره أن يعلِّم ابنه يزيد. قال الحسن البصري: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وستين سنة، ولم يسمع من النبي ﷺ شيئاً، وقد أدركه. قال الأصمعي: دخل دَغْفَل على معاوية فقال له: أيُّ بيت قالت العرب أفخر؟ قال: قول الشاعر[2]: [من الطويل]

لَهم هِمَمٌ لا مُنْتَهى لِكِبارِهَا ... وهمَّتُه الصُّغْرَى أَجلُّ من الدَّهرِ
له راحةٌ لو أنَّ مِعْشَار جُودِها ... على البَرِّ كان البَرُّ أَنْدَى مَن البَحرِ

فقال له: أحسنت. وعاش دغفل حتى قتل يوم دولاب من فارس في قتال الخوارج.

فقال دغفل: [من الرجز]

نأتي على سائلنا فنسأَلُه
والعبءُ لا نعرفه أو نحمِلُه

ياهذا، إنك قد سألتنا فأخبرناك، ونحن نسائلك فأخبرنا: ممن أنت؟ فقال أبو بكر: من قريش. قال: بَخٍ بَخٍ، أهل الشرف والرياسة. فمن أي قريش؟ قال: من ولد تيم بن مرة. فقال الفتى: أمكنت الرامي من الهدف، أمنكم قصي الذي جمع الله به القبائل من فهر؟ قال: لا. قال: أمنكم عمرو العلى الذي هشم الثريد لقومه؟ قال: لا. قال: أمنكم شيبةُ الحمْد الذي أسقى الله به البلاد، وأحيا به العباد؟ قال: لا. قال: فمن

(١) في المصادر زيادة: «فمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا. قال: فمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا».

(٢) هو لبكر بن النطّاح والبيتان في «الكامل في الأدب» ٢/ ١٠٣٢ .

أهل الدار والندوة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الحجابة، أو الرفادة، أو السقاية، أو الإفاضة؟ قال: لا. قال: فأنت إذاً من زمعات قريش؟ قال: فجذب أبو بكر زمام ناقته وعاد إلى رسول الله ﷺ مغضباً. فأنشد الغلام: [من الرجز]

صَادَف دَرُّ السَّيل سَيْلاً يَدْفَعُه

يَهِيضُه حيناً وحيناً يَصْدَعُه

قال: فتبسم رسول الله ﷺ، قال علي رضي الله عنه: فقلت: يا أبا بكر، لقد وقعت على باقعة[1]؟ قال: أجل يا أبا الحسن، ما من طامة إلا وفوقها طامة، والبلاء موكَّلٌ بالمنطق.

قال علي رضي الله عنه: فدُفِعْنا إلى مجلس عليهم السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر فسلم عليهم فردوا، فقال: من القوم؟ قالوا: من شَيبان بن ثَعْلبة. فقال: يا رسول الله، هؤلاء غُرَرُ الناسِ ليس وراءهم من فوقهم شيء، منهم: مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك، ثم قال أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنّا لنزيد على ألف، ولن يُغلبَ ألفٌ عن قِلَّةٍ. قال: فكيف المَنَعة فيكم؟ قال: علينا الجُهْد، ولكل يوم حد. قال: فكيف الحرب فيكم؟ قال: إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى، وأشد ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللِّقاح، والنصر من الله، يديلنا مرة ويديل علينا أخرى، ثم أشاروا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: لعله أخو قريش؟ فقال: نعم. قال: فإلام يدعو؟ قال: فتقدم رسول الله ﷺ، وأبو بكر قائم يُظِلُّه بثَوْبه، فقال رسول الله ﷺ: «أدعوكم إلى شَهادةِ أن لا إله إلا الله وأني رسُولُ الله، وأن تنصُروني وتأوُوني، فإنَّ قُريشاً قَد ظاهَرَت على أمرِ الله، وكَذَّبت رسولَه» ثم قرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٥١]الآية. قال مفروق: والله ماسمعت أجمل من هذا الكلام. فقرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[النحل: ٩٠]الآية. فقال مَفْروق: ليس هذا من كلام أهل الأرض، ولكن دَعَوْتَ إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن

(١) أي: داهية.

الأعمال، ولقد أَفِكَ قوم كذبوك وظاهروا عليك، وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب رأينا[١]، فقال هانئ: سوف ننظر في هذا الأمر. وقال المثنى بن حارثة، صاحب حزمهم[٢]: قد سمعنا ما قلت يا أخا قريش، ولكن نحن نُزولُ حَدِّ اليمامة ـ أي مستنقع الماء ـ، فما كان منها مما يلي كسرى، فذنب صاحبها غير مغفور، وعذره غير مقبول، وقد أخذ كسرى علينا العهود أن لا نأوي مُحْدِثاً، ولا نُحْدِث حدثاً، والذي تدعو إليه تكرهه الملوك، فإن شئت آويناك ونصرناك على من يلي مياه العرب فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم الردَّ إذاً، إنَّ دِينَ الله لن يَنْصُره إلَّا مَن أحاطَه مِن جميع جَوَانِبِه، أرأيتم إن لَم تَلْبَثوا إلا قليلاً حتى يُورِثَكُمُ الله أَرْضَهم ودِيارَهُم وأَمْوالَهم ويُفرِشَكُم نِساءَهُم، أَفَتُسبّحون الله وتُقدِّسُونَه». فقال النعمان بن شريك: اللهمَّ لك ذاك. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٦]. قال: فما برحنا حتى بايعوا رسول الله ﷺ.

(١) في المصادر الآتية: «ديننا».

(٢) كذا جاءت هذه الكلمة في النسخ، ولعلها «حربهم» ففي «المنتظم» ٣/ ٢١ـ٢٥ و«الدلائل» ٢/ ٤٢٢ـ٤٢٧: وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا.

obeikandl.com